العرب
الأربعاء 2020/07/29
السنة 43 العدد 11776

«ملحن الأجيال» يفارق عشاقه وفي قلوبهم لحنه الخالد

الجزائري لمين بشيشي: تجربة نادرة جمعت النضال السياسي بالإبداع الفني

تشكل شخصية المناضل والمثقف والفنان الراحل لمين بشيشي كنه الرسالة التي رفعتها جبهة التحرير إبان ثورة الجزائرية، فكانت البندقية في يد والمسرح والموسيقى والقصيدة في اليد الأخرى، من أجل تعريف العالم بأوجه الثورة وبرسالة المناضلين الكبار، فكما صدح صوته في إذاعة "صوت الجزائر" وقلمه في صحيفة "المجاهد"، جادت قريحته أيضا بأجود الأعمال والألحان للأجيال الصاعدة.

صابر بليدي
صحافي جزائري

الجزائر – رحل مؤخرا المناضل والمثقف والفنان الجزائري لمين بشيشي، تاركا وراءه فراغا رهيبا في عالم التأليف والتلحين، غير أن رصيده سيبقى شاهدا على رجل سخّر حياته لخدمة وتهذيب ذوق الطفولة، رغم انحداره من عالم النضال القومي الخشن، فكما صدح بقلمه وصوته في صحيفة "المجاهد" وإذاعة "صوت الجزائر"، اهتم بالإعلام والتربية الطفولية، فأطلق أجمل لحن ظلت المدارس الجزائرية تردده لعقود كاملة، ليبقى بذلك أحد الروائع الخالدة.

> لمين بشيشي أبدع لحن أنشودة «مدرستي آن الرّحيل وآن أن نفترقا»، الذي خلده في مخيال وعقول أجيال بأكملها

وكان بإمكان الفنان الراحل لمين بشيشي أن يخلد اسمه وروحه بأي عمل أو مؤلف آخر، كما يفعل رموز الأدب الفن والسينما، إلاّ أن لا واحدا من أعماله يمكن أن ينافس لحن أنشودة "مدرستي آن الرّحيل وآن أن نفترقا"، الذي خلده في مخيال وعقول أجيال بأكملها، رددتها وبكت لأجلها، وتبقى كذلك رغم التعتيم الذي يمارس على الإبداع والذوق الرفيع في بعض المواقع.

وكما يقول نقاد بأن المبدع يخلده عمل واحد حتى ولو ترك مكتبة ثرية خلفه، فإن الرجل سيبقى في مخيال الجزائريين، مرتبطا بمسلسل "الحديقة الساحرة" للتلفزيون العمومي، وبالأغاني التربوية الموجهة للأطفال التي كانت تؤلف للبرنامج/ المسلسل، وعلى رأسها أغنية "مدرستي آن الرّحيل وآن أن نفترقا"، التي كتبها الشاعر الراحل محمد الأخضر السائحي.

اللحن الخالد

ولد لمين بشيشي بمنطقة سوق أهراس على الحدود التونسية في العام 1927، تلقى تعليمه الأول في مدارس جمعية علماء المسلمين الجزائريين، ثم رحل إلى تونس في العام 1956، أي عامين بعد انطلاق ثورة التحرير، للإشراف على إصدار الطبعة الثالثة من جريدة "المقاومة الجزائرية" التي صدرت طبعتاها السابقتان في أجزاء محدودة من فرنسا والمغرب وتونس نفسها.

وأهّله حسّه الصحافي لأن يلتحق بمنبرين كانا العصب الإعلامي الأقوى للثورة هما جريدة "المجاهد" وإذاعة "صوت الجزائر"، وبعد الاستقلال تولى إدارة الإذاعة والتلفزيون العموميين، في ظرف عصيب بسبب قلة الكوادر الفنية والإعلامية، بعد استرجاع السيادة الوطنية على الإذاعة والتلفزيون في أكتوبر 1962.

وجمع الرجل بين العديد من الوظائف الإدارية والفنية، حيث انتسب آنذاك لإدارة المعهد الوطني للموسيقى وعضوية الأكاديمية العربية للموسيقى والإبداع الموسيقي، وساهم في عدة إبداعات راقية، على غرار موسيقى شارتي البداية والنهاية لمسلسل "الحريق"، للأديب محمد ديب.

وخلال العشرية الدموية اختار الرجل بموقفه الثوري التاريخي، الوقوف في وجه المشروع الظلامي للجماعات الإرهابية، وعاد لإدارة مؤسستي الإذاعة والتلفزيون الحكوميتين في حقبة التسعينات، ثم تولى بعدها حقيبة الاتصال في حكومة الرئيس الأسبق اليامين زروال.

ولأن شخصية وحضور الرجل ارتبطا بالإبداع الفني وليس بالمؤامرات السياسية، وبعلاقته الوطيدة مع الموسيقى والطفولة البريئة، فقد ظل محل قبول واحترام من قبل جميع التيارات والنخب، فلقب بـ"ملحن الأجيال".

ويعد المثقف والفنان لمين بشيشي، من الشخصيات الجزائرية النادرة التي وفّقت بين المناضل السياسي والمثقف المبدع، لاسيما وأن جدلية السياسي والمثقف ظلت وتبقى من أبرز بؤر الجدل المزمن لدى النخب الجزائرية، وعزا ذلك في تصريح أدلى به لصحيفة محلية، إلى كون مساهمته في العمل النضالي كانت أكثر منها في العمل السياسي.

وقال "لاحظت في تكويني حالة اجتماعية صعبة ومهينة للعائلات الجزائرية، ومنها وجدت نفسي مرغما على اقتحام المعترك السياسي أو مجال المقاومة، لأنني أعتبر نفسي مناضلا ومقاوما أدافع عن القناعات التي أؤمن بها وإن كنت داخل السلطة، فالسياسة السياسوية بالنسبة لي لعنة".

ورغم الإبعاد غير المبرّر والمفهوم للرجل من المشهد الفني والثقافي، إلاّ أن التواضع بقي يلازمه إلى دار الخلود، فقد رفض أن يبرّر عدم بروز طاقات فنية في الجزائر، خاصة في المجال التربوي، حتى بوصف "التراجع"، وقال لمحدثه، "يصعب إطلاق حكم التراجع أو التقهقر".

وبرّر موقفه بكون "الجزائر غنية بالطبوع الفنية الموسيقية، وبروز عدة طبوع فنية جديدة على الساحة"، لكنه اعترف بأن "الساحة الفنية تشهد طغيان الأغاني التجارية الخالية من القيم الأخلاقية والتربوية، ثمّ إن سلطان الزّمان في الوقت الحالي هو اللاعب وليس المطرب كما كان زمان".

واستدل على ذلك بكون "مونديال كرة القدم 1982 في إسبانيا، ألفت أغاني للمنتخب الوطني كلها مبنية على مفردات من اللغة العربية الفصحى، على غرار أغاني المطرب الصادق جمعاوي، أما في مونديال جنوب أفريقيا 2010 فظهرت أغاني جديدة بكلمات هجينة لا علاقة لها بالثقافة الجزائرية، وهي بمثابة نكبة على لغتنا الشعبية لكونها مصطنعة وهابطة".

وسلط الرجل قبل رحيله الضوء على لغط كبير أحاط بعائلة الفنانة الراحلة وردة الجزائرية، بعد اتهام المطرب حاج الطاهر الفرقاني لوالدها بامتلاك "كباريه" في باريس، بكون العاصمة الفرنسية كانت في خمسينات القرن الماضي تضم "كباريهين" اثنين فقط، الأول يسمى "الجزائر" والثاني "الطامطام" يملكه والد وردة الجزائرية، وهناك كان يأتي عرب المشرق لسماع أغاني عربية محترمة أين سهر محمد عبدالوهّاب في كباريه الجزائر وألّف "ليالي الجزائر" ذات مرة. وقال "الحقيقة أن المرحومة وردة الجزائرية وهي بعمر الـ11 سنة كانت تصعد على الخشبة لتغني في الطامطام، أين كان يرتبط الشيخ الفرقاني بعقد للغناء".

وأضاف "الآن تغيرت المفاهيم وأصبح الكباريه كلمة لا أخلاقية تعبر عن المجون والأغاني الهابطة، وهو ما جعل المطرب الفرقاني يسقط في فخ كلامه ويقول ما قاله خلال حفل تكريم الفنانة الراحلة وردة، وهو بريء من الافتراء وربما تجاوزه التسعين جعله مرمى لسهام جيل الفيسبوك الذي لا يرحم".

لأن الرجل يصنّف في خانة الفنان الشهم، حتى ولو كان في منصب السياسي المتسلق، فإنه اختار الاستقالة من منصب المحافظ السامي لتظاهرة الجزائر عاصمة للثقافة العربية، إذ لم يتّفق شكلها ومضمونها مع قناعاته وخلفيته القومية، واعتبر أن اختيار تاريخ التظاهرة كان خاطئا من قبل المسؤولين الجزائريين، قائلا "كان الأجدر بهم اختيار عام 2004 ليكون متزامنا مع خمسينية الثورة التحريرية العظيمة بدل اختيار عام 2007".

وأضاف "حينها اتصلت بي وزيرة الثقافة خليدة تومي، للإشراف عليها بأمر رئاسي، والذي حصل عمليا أن رئيس الدولة عبدالعزيز بوتفليقة، زهد في تعييني بمرسوم رئاسي خلافا لسنة 2003 بالنسبة لسنة الجزائر في فرنسا، بعدها أمر رئيس الحكومة الوزيرة خليدة تومي بتعييني على رأس التظاهرة، وهو ما رفضته واعتبرته زهدا رئاسيا وترفعا عن التعيين والإشراف على السنة الثقافية العربية، خلافا لكل البلدان العربية التي نظمت التظاهرة في وقت سابق".

وتابع "انطلاقا من أفكاري ومبادئي أردت أن تكون تظاهرة الجزائر عاصمة للثقافة العربية، أفضل من تظاهرة سنة الجزائر بفرنسا سنة 2003، لأن الدول العربية قدّمت الكثير للجزائر ولثورتها، وكنا نسعى لتقديم صور تليق بسمعة الجزائر، وسارت الأمور إلى أن أثيرت قضية جوهرية وهي الصرف المالي للتظاهرة، فقرّروا أن يكون لي التصرّف في عشر الموازنة وتسعة أعشارها تكون تحت تصرف الوزارة الوصية، ولأن الباخرة لا يقودها ربانان، فلا يمكن أن يكون الآمر بالصرف واحدا، فإما أن تكون أو لا تكون".

سخّر حياته لخدمة وتهذيب الذوق لدى الأجيال الصاعدة

قناعات راسخة

لأن لحن لمين بشيشي الخالد لتلاميذ المدارس ومساهماته في برامج الأطفال الهادفة تسبق المناصب، فإن الرجل ظل متمسكا، بأن "التعليم عن طريق الأنشودة أصحّ وأنفع بالنسبة للتحصيل، حيث تكون من خلال التركيز على أولويات الطفل كالأُم، الأب، المدرسة، المهن، الحيوانات المفيدة.. الخ، كما تكون باعتماد لغة في المتناول وليس لغة امرئ القيس وعنترة بن شداد، من أجل تحبيب وترغيب التلاميذ في لغتهم الأُم".

وتساءل بحسرة عن أسباب توقيف الحصص التربوية التعليمية من التلفزيون، على غرار "الحديقة الساحرة" و"بين الثانويات" وهي التي ساهمت بشكل كبير في خلق منافسة بناءة وهادفة بين التلاميذ وحقّقت الفائدة العامة.

ولم يتوان في اتهام الدوائر الفرانكفونية ومن ورائها فرنسا، بالوقوف وراء اللغة الهجينة التي طغت على الساحة الفنيّة وتعدّتها إلى مجالات أخرى في الجزائر، وجزم بأن مؤامرة فرنسية كان لها دور كبير في ما يحصل من تدنّ لمستوى كلمات الأغاني.

واستدل على ذلك بخلفيات وظروف تنظيم تظاهرة "سنة الجزائر في فرنسا" في العام 2003، حيث برز تشجيع لافت من قبل الفرنسيين للمغنين الشباب على إقحام مفردات أجنبية وأغاني فرنسية ليكونوا ضيوفا على الخشبات الباريسية.

وشدّد على أن "اللغة العربية ثابت من الثوابت في الجزائر، وهي إحدى أساسيات وحدة الشعب الجزائري ويجب الالتفاف حولها وحمايتها مثلما قاوم جيل الثورة مشروع (الجزائر فرنسية) حين وقف جيش وجبهة التحرير، وقفة رجل واحد من أجل وحدة الشعب والوحدة الترابية للوطن، لما أقرّ الجنرال ديغول بتقرير المصير للجزائريين".

إطلاق اسم أم كلثوم على شارع بحيفا يثير الجدل في إسرائيل

ستحظى كوكب الشرق أم كلثوم، التي أسرت قلوب الملايين من العرب، بإطلاق اسمها على شارع في مدينة حيفا شمال إسرائيل، إلاّ أن نشطاء يمينيين يرفضون التسمية متهمين الفنانة الراحلة بأنها "عدوّة" لإسرائيل.

حيفا (إسرائيل) – قرّرت لجنة التسميات في بلدية حيفا التي تترأسها رئيسة البلدية عينات كاليش في منتصف يوليو الجاري إطلاق اسم أم كلثوم على أحد شوارع المدينة، لأن أكلثوم "تعتبر من عظماء الغناء العربي وهي اسم مرادف للموسيقى العربية عموما والمصرية خصوصا. لذا رأت اللجنة أن تطلق اسمها على شارع في حيفا، كمدينة مختلطة تمثّل نموذجا للحياة المشتركة بين اليهود والعرب".

> اليهود المتشدّدون الشرقيون نشأوا على أغاني أم كلثوم وعبدالوهاب، بل هناك صلوات على أنغام موسيقاهما بكلمات عبرية

وأكّد عضو البلدية رجا زعاترة أن تخليد اسم أم كلثوم في المدينة "إنجاز نوعي هام للعرب في حيفا، على مستوى تأكيد الوجود والبقاء والتجذّر، ماضيا وحاضرا ومستقبلا".

وأضاف "نريد أن نؤكّد أنّ حيفا لطالما كانت قبلة ثقافية تعجّ بالمسرح والسينما والصحف ودور النشر والفعاليات الوطنية والنقابية والثقافية. وقد غنّت أم كلثوم في حفلات عدّة في حيفا ويافا والقدس في ثلاثينات القرن الماضي".

وقال "هذا حق شرعي لنا وسنواصل العمل على تحصيله، مهما علا صراخ قطعان اليمين والفاشية".

وولدت الفنانة المصرية أم كلثوم (فاطمة إبراهيم السيد البلتاجي) الملقبة بسيدة الغناء العربي وكوكب الشرق، في مصر في الرابع من مايو 1908، وتوفيت في القاهرة في الثالث من فبراير 1975، وتعد من أبرز فناني القرن العشرين.

وبعد هزيمة حرب 1967، غنّت أم كلثوم أغاني وطنية بينها "أصبح عندي بندقية" و"إنّا فدائيون" و"ثوار ثوار".

وإثر قرار البلدية، بدأ نشطاء يمينيون في حيفا حملة ضد التسمية. ونشرت صحيفة "كول بو" (كل شيء هنا) صورة أم كلثوم بحجم كبير مع عنوان بالخط العريض على صفحتها الأولى "أصبح عندي الآن بندقية إلى فلسطين، خذوني معكم" بالعبرية.

وكتبت "نعم هكذا غنت أم كلثوم التي سيطلق اسمها على شارع في حيفا". ونقلت الصحيفة عن عضو الكنيست من حزب الليكود أرييل كيلنر قوله "أشعر بالحزن لقرار تسمية أم كلثوم التي دعت إلى إبادة دولة اليهود"، مضيفا "سأجد طرقا لمنع هذه التسمية".

وسارع يائير نتنياهو، نجل رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو، إلى التعليق على قرار بلدية حيفا بتغريدة بالعبرية جاء فيها "عار وجنون".

وليست هذه المرة الأولى التي يطلق فيها اسم أم كلثوم على شوارع في مدن إسرائيلية، ففي أواخر يونيو الماضي، قوبل قرار بلدية الرملة (وسط) بإطلاق اسم أم كلثوم على أحد شوارعها بحملة مماثلة قام بها نشطاء يمينيون.

وأطلق رئيس بلدية القدس نير بركات الذي يعتبر أحد القادة البارزين في حزب الليكود وهو مقرّب من نتنياهو، اسم أم كلثوم على شارع في حي بيت حنينا في القدس الشرقية المحتلة عام 2012.

وقال يومها "أم كلثوم كانت مغنية يسمعها العالم بأسره، شرف عظيم لنا بأن نخلّد ذكراها بإطلاق اسمها على أحد شوارع القدس".

> أم كلثوم سبق لها أن غنت في حيفا ويافا والقدس في ثلاثينات القرن الماضي، ولها العديد من الأحباء في إسرائيل

وكان لافتا في حينه تباهي وزارة الخارجية الإسرائيلية على صفحتها على فيسبوك باللغة العربية بالأمر، قائلة "لا يخلو مهرجان لآلة العود من أم كلثوم". وتخصّص الإذاعة الإسرائيلية الرسمية بالعربية ساعة يوميا لبث أغاني أم كلثوم.

وفي 15 يوليو الجاري، اتهم الصحافي الإسرائيلي في صحيفة "إسرائيل هيوم" إلداد بك أم كلثوم بأنها "عدوة إسرائيل". وكتب تحت عنوان "لمعلومات الزوار في شارع أم كلثوم"، "بدأت التسمية في القدس، وانتقلت إلى الرملة ووصلت الآن إلى حيفا. النغمة الجديدة لتسمية الشوارع على اسم كوكب الشرق أم كلثوم في المدن التي فيها سكان عرب في إسرائيل".

واعتبر "أن خطوة تكريم أم كلثوم في الرملة هي إحياء ذكرى أحد أكبر أعداء إسرائيل الذين أرادوا القضاء على الدولة"، مشيرا إلى أن الفنانة المصرية "تبرّعت بسخاء في المجهود الحربي ضد إسرائيل".

ويرى الباحث في الثقافة واللغة العربية في جامعة بن غوريون في النقب يوناثان ماندیل أن صوت أم كلثوم وأغانيها من أرقى الأصوات، واصفا إياها بـ"الأيقونة" و"الأسطورة". في حين وصفها مدير قسم الموسيقى الشرقية في معهد الموسيقى في القدس جلعاد فاغنين بـ"الديفا".

ويقول ماندیل إن أم كلثوم "لا تشكل تهديدا لإسرائيل، فهي مغنية متوفية"، مضيفا "الإسرائيليون ينظرون بدونية إلى اللغة العربية والثقافة العربية حتى لو استمعوا إلى أغانيها".

ويؤكّد الموسيقي اليهودي أرييل كوهين من حزب "شاس" اليميني المتشدّد بدوره "لا أرى أم كلثوم عدوا"، فقد "أدّت أغانيها الوطنية في فترة حرب بين إسرائيل ومصر. كما غنّى محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وطنيا أيضا.. طبيعي أن يغني الفنانون أغاني وطنية في الحرب".

ويتابع أن اليهود المتشدّدين الشرقيين "الحريديم" نشأوا "على أغاني أم كلثوم وعبدالوهاب"، موضحا أن هناك "صلوات على أنغام الموسيقى الخاصة بهما، بكلمات عبرية".

ودرس كوهين أغاني أم كلثوم، وهو يردّد أغانيها في حفلاته، لافتا إلى أن "الأب الروحي الراحل للطوائف اليهودية الشرقية الحاخام عوفاديا يوسف كان يطلب منّا أغنيات أم كلثوم في الحفلات الخاصة، ويردّد معنا أغانيها التي حفظها بالعربية".